29

استراتيجية أفريقية

التحدي

قبل الحدث، لم يكن أحد من المراقبين للسياسة الأمريكية قد تكهن بأن إدارة جمهورية ستتسلم القيادة وتتوصل إلى اختراق من أجل حكم الأغلبية في أفريقيا الجنوبية. فحكم الأغلبية كان قضية ليبرالية، لم تترجم قط إلى سياسة عملياتية. ذلك أنه في بداية رئاسة نيكسون الأولى، حددت مذكرة قرار مجلس الأمن القومي رقم 38 موقع أفريقيا في سلم الأولويات بالأولوية الدنيا، وذلك لأسباب شتى: انشغال الإدارة المسبقة بجنوب شرق آسيا، العلاقة المثلثية مع الصين والاتحاد السوفيتي، الاهتمام بالشرق الأوسط، النفور من تعريض الأقليات الأفريقية البيضاء للخطر في المستقبل وكذلك المجازفة بالوصول إلى المعادن الأفريقية الجنوبية ذات الأهمية الاستراتيجية[1]. لذلك، لم يكن بالشأن الضئيل أن كان على إدارة فورد أن تحقق اختراقاً من أجل حكم الأغلبية في روديسيا وتسرّع الدبلوماسية التي تفضي إلى استقلال ناميبيا، وتقول إنها فعلت ذلك باسم المصلحة القومية الأمريكية.

لقد رعت إدارة فورد مبدأ حكم الأغلبية حتى قبل أن تقرر الإلقاء بالثقل الكامل للقوة والدبلوماسية الأمريكية خلفه. لكن في أية نقطة من المسار العادي للأحداث، تحولت أفضليتنا الأخلاقية إلى سياسة، أمر يصعب تحديده بالرجوع إلى الوراء؛ ذلك أن الحاجة للقيام بمبادرة ما نشأت من انهيار الإمبراطورية البرتغالية. لكن من المؤكد أن الأزمة الأنغولية سنة 1975 استدعت الإحساس بضرورة الاستعجال. كما أقنعتنا بأن علينا أن نقاوم أيّةَ عمليات سلب مستقبلية تقوم بها قوات خارجية. وقد كنا بحاجة لأن نتعرف بأنفسنا إلى المطامح الأفريقية ونقنع جنوب أفريقيا بالتخلي عن دعمها التاريخي لحكم الأقلية البيضاء في البلدان المجاورة.

وعلى الرغم من تأثرنا بالاعتبارات الجيوسياسية، فقد كنا مقتنعين ومصممين على الارتقاء بالأمور للتوصل إلى حكم الأغلبية. فسياسة ترتكز على مصلحة قومية لا يمكنها أن تنجح ما لم تعدّ إعداداً حسناً لإقناع أولئك الذين تسعى لإقناعهم، ولا يمكن لأولئك الذين يمارسونها أن يكونوا مقتنعين ما لم يؤمنوا كل الإيمان بما هم فاعلون. بالنسبة إلينا، كان تخفيض المقدرة السوفيتية والكوبية على تحويل أفريقيا إلى

جبهـة من جبهات الحرب الباردة هو بالتأكيد هدف أساسي. لكن كان باستطاعتنا تحقيقه فقط باعتباره جـزءاً مـن سياسة عريضة تجنـد مساندة البلدان الأخرى فـي المنطقة حسب إحساسهـا هي بالأولويات والقيم.

لهذا، فإن إسهام إدارة فورد الذي قدمته للسياسة الأفريقية، أي مصادقتها على مبدأ حكم الأغلبية، كان أقل شأناً من تحريكها للعناصر المطلوبة للنجاح. فقد حققت استراتيجيتنا هدفاً هاماً ألا وهو مساندة نظـام التمييز العنصري في جنوب أفريقيـة لمبدأ حكم الأغلبية في روديسيا وناميبيا، كما كسبت موافقة دول خـط - المواجهـة الأفريقيـة (البلدان التي تقع على حـدود روديسيا وناميبيا) علـى سياسة التطور، بـدلاً من سياسة المواجهة، ودعّمـت دول المواجهة ببلدان أفريقية معتدلة، ناطقة بالفرنسية والإنكليزية. ونتيجـة ذلك، وجدنـا دعماً كبيراً ضمن منظمة الوحـدة الأفريقية، ووحدنـا دور بريطانيا بتقديم الإطار السياسـي من أجـل الانتقال إلى حكـم الأغلبية في روديسيا، وعلّقنـا، للمرة الأولى، القيـادة الأمريكية ـ الأفريقيـة في حوار مستمـر بشأن أفريقيا مع صانعي ـــ سياسة أمريكيين رفيعي المستـوى، مما أتاح لنا إمكانية إنشاء قاعدة في الكونغرس دعمت سياسة أمريكا في القارة.

وكما تبين، فإن نهجنا العملي والاستراتيجي أساساً فيما يخص أفريقية برهن على أنه مصدر قوة في تعاملاتنا مع قادتها. وخلافاً للكثير من داعميهم الفكريين في الولايات المتحدة، فإنهم لم يطلبوا من قوة كبيـرة كأمريكا رسم سياستها الخارجيـة فقط على أساس المبدأ الغيري. فالقناعات الأخلاقية يمكن أن تمنحهـم الزخم اللازم لبدء الكفاح من أجل الاستقـلال وتساندهم عبر أخطاره وتضحياته. لكنهم كانوا قـد بقـوا على قيد الحياة ثم سادوا من خلال تعلمهم أن يولّفـوا أنفسهم جيداً مع الإزعاجات الناجمة عن علاقـات السلطة على صعـد ثلاثة على الأقل: مواجهة السلطة الاستعماريـة السابقة، والتنافس الأمريكي ـــ السوفيتي، والصراعات من أجـل السيطرة ضمن حركاتهم ذاتها، وكان عليهـم أن يتحلوا، وقد تحلوا، بالواقعية.

قلـة قليلة جداً مـن القادة في القارات الأخـرى واجهت التحديات المتأصلة في حكـم بلدان أفريقيا. ففـي أفريقيـا، لم يكن القادة يمثلون إلى حد كبير إجماع رأي وطني بقـدر ما كان عليهم أن يصنعوه يوماً بعـد يـوم. في بلدان أمريـكا وأوروبا، تتحدد شرعية الحكـم من خلال إطار دستـوري وقانوني ما، أما في أفريقيا فيحققون الشرعية من خلال ممارسة الحكم ذاتها، وفي بعض البلدان يسعون إلى إقامة الشرعية مـن خلال أعمال واضحة لإرادة ـ ذاتية. على أنه ما مـن بلد إفريقي، مهما انحرفت سياساته أو توجهاته العقائديـة، مارسـ الديمقوقراطية متعددة الأحزاب وفق النمط الغربي. وليس باستطاعته ذلك في تلك المرحلـة. ذلـك أن التحدي وخلافاً للغرب، ذاك الذي تواجهه الحكومـة يتم إدراكه ليس بوصفه برنامجاً سياسيـاً بديلاً بل كتهديد للحمـة الوطنية. وحين كان القادة الأفارقة ينـادون بالديموقراطية، فإنما كان

ذلـك لتثبيت حقـوق الأغلبية السـوداء ضد الحـكام الاستعماريـيـن، دون أن تطبق بالضـرورة على إدارة شؤونهم الداخلية. أما القادة فيحمون، بغيرة شديدة وأحياناً بوحشية شديدة، سلطتهم من كل التحديات الداخلية. وقد فسر رئيس السنغال المشهور، ليوبولد سنغور ـ وهو شاعر بقدر ما هو رجل دولة ـ المواقف الأفريقية تجاه الحكم عندما زرت دكار في 1 أيار، 1972:

سـنغور: هنا، في أفريقيا، الدولة هي عائلة كبيرة..

كيسنجر: لكن إذا كان رئيس الجمهورية هو رأس العائلة فلن تكون هناك أية طريقة لتغييره إلا بموته أو عجزه.

سنغـور: طبعـاً، في الماضـي كان هناك، عادة، طقس مـن الطقوس هو ذبح الملـك. فحين يصيب البلاد جفاف أو وباء، كان لا بد من تغيير الملوك، وحينذاك كان الملك يقبل بالذبح الطقسي ذاك. والشعـب السنغالـي هنا يؤمن بي ويثق بي لأنني حاولـت أن أرسخ التقاليد الأفريقية وأن أقيم الحوار.

كيسنجر: حسن، أتراه يكفي أن تناقش القضايا مع الكل ومن ثم تتخذ قراراتك؟.

سنغـور: أجل. تلك هي الطريقة الجدية. فإذا ما أصيغـت للإنسان، سيكون حينذاك نصف ـ راض على الأقل.

كيسنجر: في نظامنا، تلك الطريقة لا تجدي...

سنغور: .. إنها مشكلة أفريقية وهي أننا لا نعد من يخلفنا في الحكم.

فرئيـس الدولـة هو الأب، وحين يموت، يكون الأمـر بمثابة صدمة للعائلة، ولقد قلـت دائماً: إن هناك مصدرين للحزن في أفريقية: الانقلابات العسكرية التي نعاني منها وعدم الإعداد لتوريث الحكم.

هـذه المواقف تفسر هالة السحر الأولية التي تحيط بكثير من الحكام الأفارقة على الطراز الماركسي ـ اللينيني. فالنظرية الاقتصادية ليست هي ذات الصلة الكبيرة بالظروف الأفريقية التي تجذبهم. بل الأحرى أن الماركسية تلبي مطلباً أساسياً لديهم ألا وهو تركيز السلطة السياسية في مركز واحد وتأمين الاستمرارية السياسية، كما أنها تخدم غرضاً فرعياً آخر هو عدم الضغط بكثير من الحدّة على الغرب لفتح خزائنه.

وانطلاقـاً مـن سيرهم الذاتية، وتجاربهـم المحلية، فإن القادة الأفارقة لـم يتوقعوا من سلطة كبيرة أن تتصـرف بدوافـع غيريـة. وعلاقاتي بهم لم تعان من – بـل أعتقد أنهم كانوا يعـزّزون ـ إصراري على أن عليهـم أن يرتكزوا على مبدأ المصالح المشتركـة المتبادلة، وهكذا، في حفل عشاء وجهت فيه خطاباً لـوزراء الخارجيـة الأفارقة الذين كانـوا يحضرون اجتماع الجمعيـة العامة للأمم المتحـدة في 23 أيلول 1975، أعلنت:

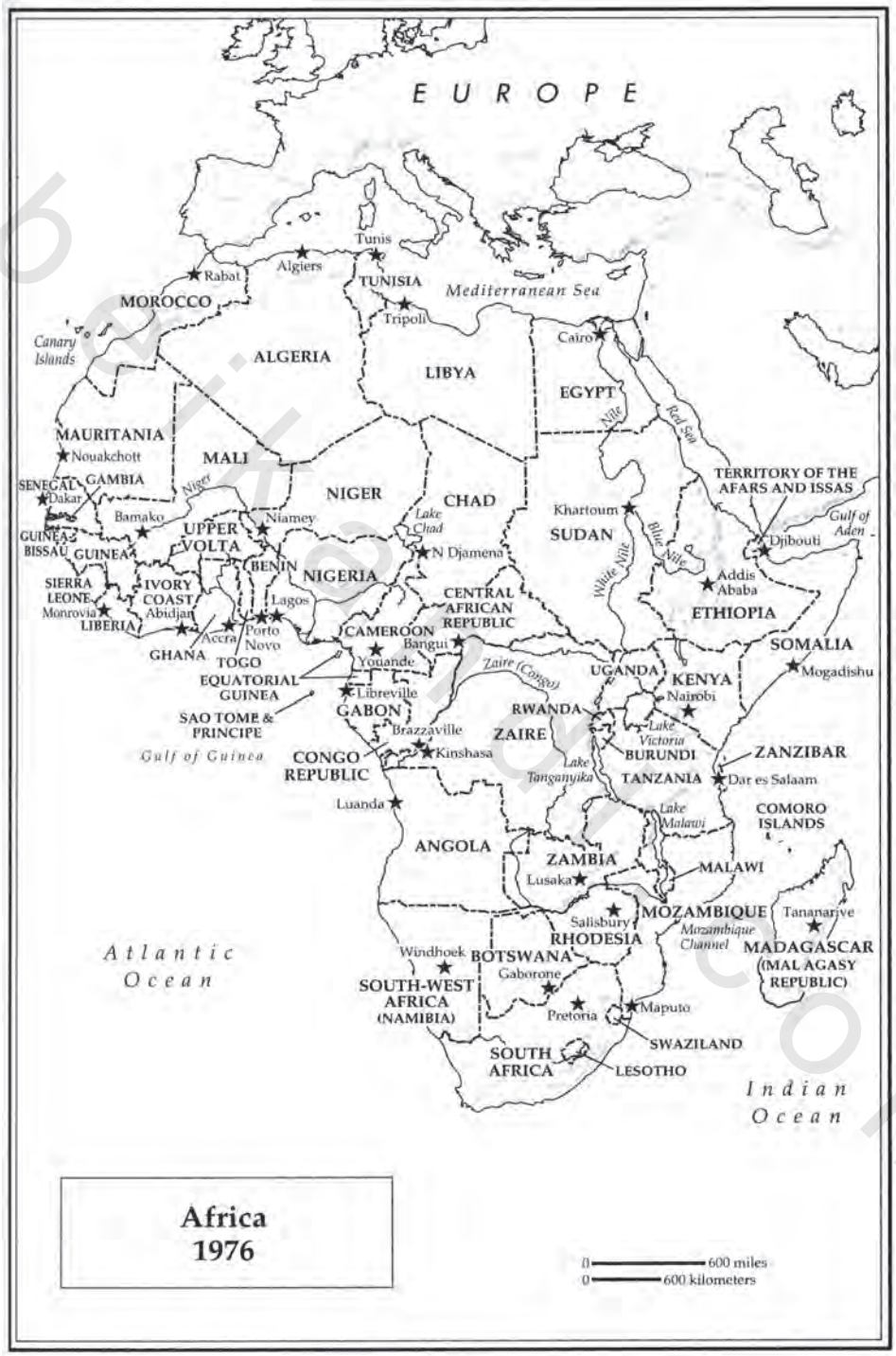
EUROPE
Tunis
Algiers
Rabat
TUNISIA
MOROCCO
Mediterranean Sea
Tripoli
Canary Islands
ALGERIA
LIBYA
Cairo
EGYPT
Nile
Red Sea
MAURITANIA
Nouakchott
MALI
SENEGAL
Dakar
GAMBIA
Niger
NIGER
CHAD
Lake Chad
Khartoum
SUDAN
TERRITORY OF THE AFARS AND ISSAS
Gulf of Aden
Djibouti
Bamako
Niamey
UPPER VOLTA
N Djamena
GUINEA-BISSAU
GUINEA
White Nile
Blue Nile
Addis Ababa
ETHIOPIA
SIERRA LEONE
Monrovia
LIBERIA
IVORY COAST
Abidjan
BENIN
Porto Novo
Lagos
NIGERIA
CENTRAL AFRICAN REPUBLIC
Accra
GHANA
TOGO
CAMEROON
Bangui
Yaounde
Zaire (Congo)
UGANDA
KENYA
Nairobi
SOMALIA
Mogadishu
EQUATORIAL GUINEA
Libreville
GABON
RWANDA
SAO TOME & PRINCIPE
Brazzaville
ZAIRE
Lake Victoria
BURUNDI
ZANZIBAR
Gulf of Guinea
CONGO REPUBLIC
Kinshasa
Lake Tanganyika
TANZANIA
Dar es Salaam
Luanda
Lake Malawi
COMORO ISLANDS
ANGOLA
ZAMBIA
MALAWI
Lusaka
Salisbury
MOZAMBIQUE
Tananarive
Mozambique Channel
RHODESIA
MADAGASCAR (MALAGASY REPUBLIC)
Atlantic Ocean
Windhoek
BOTSWANA
Gaborone
SOUTH-WEST AFRICA (NAMIBIA)
Pretoria
Maputo
SWAZILAND
SOUTH AFRICA
LESOTHO
Indian Ocean
Africa
1976
0 600 miles
0 600 kilometers

أننـا لا نتوقـع منكم أن تكونوا في حالـة انسجام تام معنا في القضايا الدوليـة كلها، لكن نطلب منكم فقط، مثلما نحترم مصالحكم، ونفكر بحقوقكم ونتعاطف مع قضاياكم، أن تولونا الاعتبارات ذاتها.

في 21 نيسان 1976، أي قبل يومين من سفري إلى أفريقية لبدء الحملة الدبلوماسية التي ستؤدي إلى حكم الأغلبية في روديسيا، التقيت بالسفراء الأفارقة الموجودين في واشنطن وقلت لهم:

إننـا نعتقـد أن مستقبل أفريقية يمكن أن يكون أفضل بفضل الأفارقة أنفسهم، ولهذا نعتقد أن الوحدة الأفريقيـة ضروريـة. علماً أنه ليس لدينـا مصلحة أمريكية خاصـة في أننا نريد أن نقـدم الخدمات إلى أفريقية، بمعنى أنه ليس لدينا أيٌّ اهتمام في تحقيق وضع المهيمن بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

إننـا نعتقد، بالطبع، أن تطور أفريقية، هو أيضاً مـن مصلحتنا، وكما يمكنكم أن تتوقعوا، ما من دولة تفعل شيئاً لا يدخل أيضاً في نطاق مصلحتها.

علـى هذا الأساس، أقمت مع نظرائـي الأفارقة علاقات شخصية حارة. فقـد كانوا يتمتعون بالفطرة السليمـة، ولهـم شخصيات بارزة، لكن غالباً تماماً ما كانـوا ذوي حس دعابة رديء. كذلك لم تكن لديهم أوهـام حـول قواعد البقاء فـي السلطة، فالسياسـة، في رأيهم، ليسـت مهنة الضعفاء. وفـي المحادثات الخاصـة، نـادراً مـا كانوا يستخدمـون الكلمات الطنانـة الرنانة المضادة ــ للغرب، والتـي أقاموا عليها رصيدهـم ضمن حركة عدم الانحيـاز. فما كانوا يطلبون من الولايات المتحـدة إنما هو تفهم مشكلاتهم الخاصـة، والمساعدة الاقتصادية والتعاون مع حركاتهم التحرريـة. وبغية إنهاء الحكم الاستعماري كانوا علـى استعـداد لقبول المساعدة من أية جهة. ذلك لم يجعلهـم تابعين يدورون في فلك رعاتهم وحماتهم، الذين كانوا يعتقدون، واعتقادهم صحيح، بأنهم كانوا يخدمون مصالحهم الخاصة. وإلى الحد الذي كان يوجـد فيـه نهج أفريقي محدد لعزل الأمم الأفريقية الجديدة عن الحـرب الباردة ـ مثلما كان يزعم كثير مـن المفكريـن، وعناصر وسائل الإعـلام، ومسؤولو وزارة الخارجية ـ فقد كان ذلـك يتجسد في التركيز البطولـي على الـذات والاقتناع بأن تقديم الشكر والامتنان، وإن كان ذا صلة كبيرة بالعلاقات الشخصية، فإنه لا يلعب دوراً في السياسة.

لفترة طويلة من الزمن، لم يكسب السوفييت إلا القليل بدعمهم المكشوف لحركات التحرر الأفريقية، كمـا لم نخسر إلا القليـل بانشغالاتنا في أماكن أخرى. بيد أن أنغولا غيرت الأمور. فهناك، وللمرة الأولى، كانـت حركة تحـرر أفريقية قد سيطرت أولاً من خلال معدات عسكرية هائلـة (حسب المعايير الأفريقية علـى الأقـل) جاءت من الاتحاد السوفيتي، بما في ذلك جسر جوي هام، ومن ثم من خلال التدخل الكوبي بقواتها المقاتلة المجهزة من قبل الاتحاد السوفيتي. ولفترة هامة من الزمن، لم يكن هناك جيش لحركة التحرير الأنغولية يمكن أن تتحدث عنه؛ فكان القتال الحاسم يتم من قبل القوات الكوبية حصراً، بمساعدة مستشارين حربيين سوفييت.

فـي هـذه الظروف، لم يعد من المحتمل الـكلام بصورة مقبولة عن «حلـول» أفريقية خاصة. فإذا لم يتم إيقاف الاتحاد السوفييتي والملحقين به عند حدهم، فإنهم سيظهرون كعامل حاسم، ربما، في شؤون القـارة ولسـوف يدفع القادة الأفارقة الأكثر عملياتية والأقـل أيديولوجية من خلال علاقات القوة الناشئة لأن يلقوا بأنفسهم في أحضان موسكو، وإن رغبوا في تحاشي أحضان موسكو (أو كوبا)، فإن باستطاعتهم ـــ إذا وقفـت الولايـات المتحدة جانباً ـ أن يتحولـوا إلى الصين التي كانت ترغـب كل الرغبة في منافسة موسكـو وإن كانت لا تملك إمكانية الوصول ولا الثـروات للتعامل مع الاندفاعة السوفيتية ـ الكوبية. وما إن تنشـأ قاعدة سوفيتية ـ كوبية هناك، حتى تتطلب عملية عسكرية أساسية لإزاحتها من موقعها (وقد ظلت القـوات الكوبيـة ما يربو علـى خمس عشرة سنة في أنغولا، ثم لم تنسحب إلا عندمـا ـ وعلى نحو متأخر ـ بدأت الضغوط عسكريةً مضادةً وهامة تمارس عليها من قبل إدارة ريغان).

الهـدف الأشـد هشاشة بالنسبة إلـى الأزمة التالية بدا وكأنـه روديسيا الجنوبيـة السابقة (زمبابوي الآن)، حيث كانت أقلية من الأوروبيين البيض لا يزيد عددها عن 270000 نسمة تحكم قرابة ستة ملايين أفريقـي. وكونها مستعمـرة بريطانية، كانت قد أعلنت من جانب واحـد استقلالها سنة 1965. بذلك كان موقـف روديسيـا القانوني الدولـي مماثلاً لموقفها. فـي البداية، سعـت بريطانيا من أجل تعـاون أمريكا للإطاحـة بالنظام الجديد الذي يرأسه إيان سميث، لكن إدارة جونسون تملّصت، فظل إيان سميث رئيساً للـوزارة عقداً كاملاً آخر. ونظراً لعدم اعتراف أية دولة بهـا فقد كانت روديسيا من الناحية القانونية، ما تـزال مستعمـرة بريطانية، ونتيجة للحكمة التقليديـة التي تملكها فقد رأت أنه لا بد مـن التوصل إلى حل مـن أن تطلب إلـى روديسيا سحب دعواها بالاستقلال. بعد ذلك توضع مسـودة دستور جديد يوفر الحكم للأغلبية تحت رعاية بريطانية، وذلك آخر عمل تقوم به في حكمها الاستعماري.

علـى أن المشكلة كانت فـي أن بريطانيا لم تعد لديها القوة ولا السلطـة لتحقيق هذا الهدف بنفسها. وقد عقدت عدة اجتماعات بين إيان سميث وهارولد ويلسون أخفقت كلها في التوصل إلى مخرج وذلك في مطلـع السبعينيات. كما أن الحظـر الدولي لا يمكن أن يكون فعالاً طالما كانـت جنوب أفريقية ومستعمرة موازمبيق البرتغالية تؤمّنان حركة النقل للتجارة الروديسية.

بمجـيء 1974، عمل إنهـاء الاستعمار البرتغالي على تثوير السيـاق الجيوسياسي. فحكومة موزامبيق الماركسيـة الجديـدة أغلقت حدودها مع روديسيا وأصبحت قاعـدة لعصابات حرب شعبية، وهي، من كل جـارات روديسيـا، كانت تعتبر أيديولوجيـا الأشد نزوعاً لدعوتهـا الكوبيين للتدخل. وهكـذا بدأت جنوب أفريقيـة، بمواجهة هذه الضغوط المحتملة، هـي الداعمة الطويلة الأمد لإيان سميث، تفكر أفكاراً جديدة حول دعمها لروديسيا وسحبها لوحدات الشرطة التي كانت قد أرسلتها إلى الحدود الروديسية ـ الزامبية. التقـى وزير خارجية جنـوب أفريقية في لوساكا بوزارة خارجية تنزانيا، وبوتسوانـا، وزامبيا ثم رتبوا معاً

اجتماعـاً بيـن سميث وقـادة المجلس الوطني الأفريقـي (المنظمة ــ المظلة التي تختفـي تحتها حركة الاستقـلال الأفريقيـة الروديسية). تم الاجتماع في عربة قطار عند شـلالات فيكتوريا، الحدود الساحرة التـي تفصل بيـن زامبيا وروديسيا، وذلك تحت إشراف كينث كاوندا، رئيـس زامبيا، ورئيس وزراء جنوب أفريقيـة، جوهانز فورستر كونهـا قوتين، ضامنتين، ثم انتهى الاجتماع الخـارق للعادة، أيضاً، إلى طريق مسدود.

ذلـك الطريق المسدود أدى إلى خلق أخطار تدخل أجنبي متزايدة. فإذا تصاعدت حرب العصابات، يمكـن لمقاتلي المقاومة أن يبـدؤوا بزعزعة استقرار الدول التي لهم قواعد فيهـا، ولاسيما زامبيا، مثلما فعلـت منظمة التحريـر الفلسطينية، بالنسبة إلـى الحكومة الشرعية في لبنان (انظـر الفصل 23). هنا يمكن أن تظهر القوات الكوبية، ويكون تدخل جنوب أفريقية محتملاً حينذاك.

تلـك هـي المشكلـة الجيوسياسية التي سعـت إدارة فورد لمعالجتهـا، بينما كانت ترتكـز على تطوير برنامج يمكن معه للقادة الأفارقة أن يحددوا هويتهم، وقاعدة يمكنهم منها أن يقاوموا المزيد من عمليات الاستلاب السوفيتية ـ الكوبية.

العالم يتطلع إلى أنغولا:

فـي 5 أيلـول، 1975، أي بعد أربعـة أشهر ونصف من زيارة كينث كاوندا إلـى واشنطن، التقيت بوزير خارجيتـه، روبيا بندا، فـي نيويورك خلال الجلسة الخاصة السابعة للجمعيـة العامة للأمم المتحدة، فلم يذكـر أي منا أنغولا. وذلك، من جانبنـا، لأن برنامجنا السري كان قد بدأ لتوه، وكنا نتوقع له النجاح رغم كل التـرددات والتأجيلات. ثم إن بندا لم يطرح الموضوع، ربما بسبب حساسية النصيحة التي وجهها لنا رئيسه، وربما أيضاً لأنه ما من قائد أفريقي كان بمستطاعه أن يفكر بأن من الممكن أن نفشل، وعلى نحو أقل في أن من الممكن أن يجبرنا على الفشل كونغرس الولايات المتحدة ذاته.

بدلاً من ذلك، تحدثنا أنا وبندا عن روديسيا. فقد قدم، دون أي إحساس خاص بالاستعجال، اقتراحاً عملياً فحواه أن على كلتا الدولتين، الولايات المتحدة وزامبيا، أن تحثا رئيس وزراء جنوب أفريقية، السيد فورستـر، على استخدام نفوذه الجيد لدى سميـث: «ها هنا نلتقي إن كراهيتهم لنظام التمييز العنصري، بالنسبـة إلـى الكثيرين من الزعماء الأفارقـة، ليست بالعقبة التي لا يمكن تجاوزهـا بهدف تحقيق تعاون عملـي مع جنوب أفريقية بخصوص مشكلات أفريقيا. وقد وسع بنـدا الدعوة بحيث أزور زامبيا، فوافقت مبدئياً على أن تتم في الربيع التالي.

فـي غضون ذلك، سعيت لإيجاد الإطار العام المناسـب لانغماس أشد في شؤون أفريقية. ففي كل من الخطاب السنوي لوزير الخارجية الذي التقيته في الجمعية العامة للأمم المتحدة في 22 أيلول وكذلك في مأدبـة العشاء التي أقمتها لوزراء الخارجية الأفارقة وممثليهـم الدائمين في 23 أيلول، ركزت كل التركيز

علـى مساندة أمريكا لأهـداف أفريقية في التقـدم الاقتصادي، والعدالة، وإنهـاء العنصرية، والنأي عن تنافس القوى العظمى [3].

مـرة ثانيـة التقيـت ببندا في 17 كانـون الأول خلال مؤتمـر المنتخبين - المستهلكيـن الذي عقد في باريس. كانت أنغولا قد أصبحت القضية العامة التي بدأت منظمة الوحدة الأفريقية تتدخل فيها. فقد دعم بنـدا موقفنـا، وهو رفض الاعتراف بحركة تحرير أنغولا المدعومة كوبيـاً وسوفيتياً وكنت ما أزال متفائلاً بـأن الجمع بين المساعدة الفرنسية، أرصدة وزارة الدفاع التي أعيدت برمجتها، والدبلوماسية الأمريكية ـــ السوفيتية، سيحقق أهدافنا في وقف ـ إطلاق النار، وانسحـاب القوات الأجنبية وإقامة حكم ائتلافي. مـرة ثانية كانت روديسيا هي موضوع المحادثات الرئيسي، ومرة ثانية ألح بندا على النهج المشترك تجاه جنوب أفريقية (رغم الدور الملحوظ حينذاك الذي كانت تقوم به قوات جنوب أفريقية في أنغولا).

خـلال أيام، انتهت استراتيجيتنا الأنغولية، وكانت، تعديـلات توني وفيما بعد كلارك هي التي أنهتها. لقـد كسبـت حركة التحرر الأنغولية وصار لهـا اليد العليا، كما صار التحدي الماثـل في منع قوات الحملة الكوبيـة المجهـزة سوفيتياً من الظهـور كقوات متحكمة في أفريقيـة الجنوبية، أمراً ملحـاً. ومباشرة إثر إخفاق محاولتنا الأنغولية تقدمت إلينا أربع دول أفريقية بطلب ترجونا فيه أن نحول دون عاقبة كهذه.

فـي 5 شبـاط 1976، زار مارك تشونا، أميـن سر كاوندا، واشنطن ناقلاً رسالة مـن رئيسه إلى فورد، فكرتها هي، أن الطريقة الوحيدة لكسر الجمود في القضية الروديسية هي أن أوجه رسالة إلى إيان سميث أحثـه فيها على المفاوضات، وإلا فإن عصابات الحرب الشعبية المتوضعة في زامبيا وموزامبيق ستصّعد الحـرب ولا شـك وستنقلها إلى بلاده. وما إن يصبح الكفاح يكن لائقاً وإننا لن نتساهل مع أي تحرك كوبي آخر في أفريقية الجنوبية. شدد تشونا على ضرورة اتخاذ إجراءات لمنع أية أعمال كوبية وسوفيتية أخرى فـي أفريقيـة الجنوبية، إذ كان هو وكاونـدا يعتبران أن الاتجاهات السائدة حاليـاً تشكل خطراً جدياً على أمن المنطقة برمتها وعلى استقلالها.

فـي 11 شباط، اتصل وزير خارجية زائير، نغوزا ـ كارل ـ بوند، وسفير السنغال أندريه كولبري بفورد كـي يعبرا عـن وجهة نظر البلدان الناطقـة بالفرنسية. فهي، الأبعـد جغرافياً، كانت أقـل اهتماماً بحكم الأغلبيـة في روديسيا وأكثر قلقاً بكثير للنجاحات السوفيتية وللقرار الأمريكي الواضح بالتخلي. فرد فورد «بأننا سنفعل كل شيء في مستطاعنا للتأكيد بأن ما حدث لن يتكرر أبداً. إننا مصممون، وأعتقد أن الحالة قد تغيرت» . لقد كان نوعاً من الاستبصار في عقل الكونغرس المفكر الذي كان، في مثولاتي الكثيرة أمام لجان الكونغرس، كثيراً ما يروغ مني.

الدولـة التالية التي سمعنا منها كانت مصر. فقـد زار وزير الخارجية محمد رياض عدداً من البلدان الأفريقيـة في أواسط شباط، ثم شارك بعد ذلك السفيـر الأمريكي هيرمان إيلتز اهتمامه العميق بالدور

السوفييتي المتنامي في القارة وبتراجع النفوذ الأمريكي. وذكر في تقريره، واقعاً تحت تأثير الكارثة في أنغولا، بلداناً مثل مراكش، وإثيوبيا، وكينيا تعتبر نفسها في حالة خطر شديد، بل حتى قادة يساريون مثل جوليوس نيريري، رئيس تنزانيا، الذي كان قد دعم حركة تحرير أنغولا، قيل إنه قلق من تعاظم الوجود السوفيتي ودرجة التخلي الأمريكي. وقد تقدم رياض بطلب متّقد العاطفة، بوصفه صديقاً للولايات المتحدة، قائلاً: إن المنطقة بحاجة ماسة وعاجلة لسياسة أفريقية أمريكية «أكثر فعالية واستجابة»، مختتماً تقريره بملاحظة تقول: إن معظم الزعماء الأفارقة الذين التقى بهم في رحلاته كانوا يتساءلون، إن كان للولايات المتحدة أية سياسة أفريقية على الإطلاق.

وخلال رحلة إلى أمريكا اللاتينية وفي رسالة وصلت في منتصف شباط، سمعت التحليل نفسه من قادة نصف الكرة الغربي. فكتبت تقريراً إلى فورد حول موقف الرئيس الفنزويلي كارلوس أندريه بيريز الذي كتم عاطفته ووده للإدارات الجمهورية منذئذ فصاعداً كتماً تاماً:

في فنزويلا، لم يفت انتباه الرئيس بيريز إلا بالكاد أن الحكومة في لاوندا استلمت مقاليد السلطة بحراب دولة من أمريكا اللاتينية (أو بالأحرى دولة كاريبية نظراً لأن فنزويلا تخشى كل الخشية من أن تتمكن كوبا من إقامة كتلة كاريبية سوداء)..

بهذا المعنى، فإن أنغولا، بالنسبة إلى أمريكا اللاتينية، أكثر أهمية من فيتنام، والآن، كما حينذاك، هم مهتمون بما يحدث في واشنطن وليس في سايغون أو لاوندا. إنهم يعلمون أن دولة من أمريكا اللاتينية ـ ولأول مرة في التاريخ ـ قد قامت بغزو من وراء البحار وبقوة عسكرية ذات قوة نار معتبرة متدخلة في صراع داخلي في بلد آخر تدخلاً كانت له نتائج حاسمة كل الحسم ـ ولقد حاولنا أن نفعل شيئاً حيال ذلك لكننا فشلنا، نتيجة انقسامنا الداخلي، في إيقاف كوبا.

لقد كان الفنزويليون صريحين حول فشلنا بقدر ما تسمح لهم اللياقة وآداب السلوك أن يكونوا. أما البيروفيون فقد كانوا أقل رغبة في إبداء قلقهم، ربما نظراً لأن البيرو حريصة على أن تحافظ على رصيدها كدولة عدم انحياز. لكن ليس ثمة من شك لدى كراكاس أوليما على حد سواء في أن رد فعلنا على الكوبيين في أنغولا غيّر من نظرة أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة وليس نحو الأفضل.

في 23 شباط، كتبت تقريراً إلى فورد من كولومبيا عن وجهات نظر الرئيس ألفونسو لوبيز متشيلسين:

«إنه مهتم الآن بكوبا قدر اهتمام رئيس فنزويلا، بيريز، بها، لكن.. هو يرى الخطر في أن الاستراتيجية الكوبية الجديدة هي أن تستغل البعد العنصري في جيوسياسات المنطقة المضطربة (أمريكا اللاتينية). كما يعتقد أن كاسترو لن يذهب إلى قبره أبداً قبل أن يحاول القيام بدور في العالم يتجاوز كوبا».

رحلتي إلى أمريكا اللاتينية هي المناسبة التي استغلّيتها كي أؤكد على أننا لن نتساهل تجاه أي تحرك عسكري كوبي آخر في أفريقية. بيد أن الحضور كانوا متشككين إلى حد كبير، بل إن وزير الخارجية البرازيلي، أنطونيو داسيلفيرا، عبر بفظاظة عما كان زملاؤه من البيرو، وفنزويلا، وكولومبيا، قد قالوه برقة وكياسة. فعندما عبر عن قلقه من أن تتدخل القوات الكوبية لدعم غوايانا في نزاعها الحدودي مع البرازيل، قلت: إننا بالتأكيد لن نتساهل إزاء أي تحرك كوبي من هذا النوع، فرد داسيلفيرا فاتحاً عليّ النار: «نحن غير متأكدين من أن باستطاعتنا الاعتماد على الولايات المتحدة بعد الآن».

صياغة استراتيجية أنغولية:

في 4 آذار 1976، نقل إلي سفير المملكة المتحدة، بيتر رامسبوثام، ملاحظات مجموعة بريطانية عليا كانت قد زارت روديسيا بأمر من رئيس الوزراء جيمس كالاهان:

إن الوضع يسير من سيئ إلى أسوأ، والموقف بالنسبة إلى الغرب أكثر جدية. وكما قال البارحة ديفيد إنالز: (مدير إدارة رودويسيا في وزارة الخارجة) هناك تغلغل شيوعي كثيف. وإننا قلقون كل القلق من حرب عنصرية أيضاً، والآن مع روديسيا هناك وضع خاص للمملكة المتحدة ـ المشكلة الدستورية. فجيم كالاهان لن يتحمل مسؤولية دون أن يكون لديه سلطة.

قلت لرامسبوثام إننا سنكون «متعاطفين مع أي شيء يقرره كالاهان»، لكنني حذرته من أننا لن نقبل أي إخفاق في التوصل إلى حكم الأغلبية كعذر للوقوف جامدين إلى أن يحدث غزو عسكري كوبي آخر إلى أفريقية:

يمكنني أن أقول لك، رغم الضجة التي يحتمل أن تقوم هنا: إننا لن نقبل أي تدخل كوبي آخر. فالعواقب بالنسبة إلى أفريقيا ـ ويمكنني القول إثر رحلتي إلى أمريكا اللاتينية ـ بالنسبة إلى الأمريكيين الجنوبيين والكاريبيين أيضاً ـ بما في ذلك ممتلكات بريطانيا الكاريبية السوداء ـ أقصد عواقب وجود جيش كوبي منتصر ستكون وخيمة للغاية. كما إننا لن نستطيع تحمل وجود جيش كوبي يتقدم في أنحاء أفريقيا كلها.

على أن رامسبوثام كان أكثر تهذيباً وانضباطاً من أن يعبر عن اختلافه معي. لكني، وبكل وضوح، كان أكثر تحمساً حول استعارة قوات أمريكية لمساندة سعي كالاهان من أجل حكم الأغلبية مما كان حول اشتراكنا في مقاومة المغامرات الكوبية. ولقد اتضح الفارق في التأكيد عندما أغلقت موزامبيق دون أية شروط فيما يتعلق بالتدخل الكوبي. رفضت الولايات المتحدة الانضمام إلى ذلك القرار الجماعي، إذ أوضحنا أن مأسهمتنا الصغيرة ستتوقف إذ ما سمحت موزامبيق لقوات عسكرية أجنبية بالمشاركة في الصراع الروديسي. في 12 شباط، نقلت تصميمنا على مقاومة أية تدخلات سوفيتية أخرى إلى وزير خارجية غوايانا، فريد ويلز، الذي كان في زيارة إلى واشنطن. وكونه صديقاً معروفاً لكاسترو ومعجباً به، كنت على يقين من أنه سيمرر تحذيرنا بأن كاسترو يلعب بالنار «وأننا آجلاً أم عاجلاً سنوقفه عند حده»، وأننا سنختار مكان المواجهة:

إن لـم تكبـح كوبا نفسها، فسيكون الاحتمال الأكبر هو أن تحـدث مواجهة عسكرية في كوبا، وليس في أنغـولا. لقـد فعلنا كل ما بوسعنا لتحسين العلاقات، لكن ليس الشـيء ذاته علناً: «لسوف تعارض الولايات المتحدة أشد المعارضة» أي عمل آخر تقوم به القوات السوفيتية أو الكوبية «كمغامرة دولية محضة»[4].

لـم نقتـرح أن ترتكز سياستنا على الاعتبارات الاستراتيجية وحدها. ففي 13 آذار، ألزم فورد، وللمرة الأولـى، الولايات المتحـدة بأن تدعم دعماً لا مواربة فيه حكم الأغلبية في أفريقية الجنوبية: «إن الولايات المتحدة مكرّسة كلياً للعمل إلى أن ترى أن الأغلبية هي صاحبة السلطة والحاكمة في «روديسيا» [5].

لـم يناقش كالاهـان، ونحن في أفضل حالـة من العلاقـات الإنكليزية الأمريكيـة التقليدية الخاصة، مناقشـة صريحة معي التعليـق الذي كنت قد قلته لرامسبوثـام بأننا سنقاوم أية مغامـرات كوبية أخرى، سواء حققنا حكم الأغلبية في روديسيا أم لا. بل بدلاً من ذلك، كشف كالاهان، مدعياً أن الوقوف في وجه التحركات الكوبية هي مشكلة سياسية إلى حد كبير، سيكشف النقاب عن اقتراح بريطاني في 22 آذار بأن «نسبـق» السوفيت، بحيث تكـون سمة ذلك الأساسية وضع برنامج زمني دقيق لحكم الأغلبية خلال ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين شهراً.

وقـد دعمـت اقتراح كالاهان في خطاب ألقيته في دلاس في اليـوم ذاته داعياً إياه بأنه «بنّاء جداً»، ثم أرفقته بتحير إلى كاسترو:

لـن يكون تعاوننا متوفراً لأولئـك الذين يعتمدون على الجنود الكوبييـن. فالولايات المتحدة لا يمكنها أن تسلم إلى ما لا نهاية بوجود قوات وحملات كوبية في أراض نهائية عنها بهدف ممارسة الضغط وفرض التطورات السياسية بقوة السلاح » [6].

خلال ثمان وأربعين ساعة أعلن إيان سميث عن رفضه لاقتراح كالاهان. إذ من الواضح أن الاقتراحات الدبلوماسيـة لا يمكنهـا بنفسها أن تغيـر ميزان الحوافز التي مكنت إيان سميث مـن تحصين نفسه طيلة عشـر سنـوات. ولم يكن لدى بريطانيا القوة لإخضاعه، كما لم يكـن باستطاعتها أن تضيف إلا القليل لما كانت تفعله دول المواجهة – وبلا فعالية بالأحرى. وهكذا، بإعلان خطة عقيمة بعد أخرى، انتهت المغامرة إلـى إحباط الأطـراف الأفريقيـة وتقديم الذريعة للتدخـل السوفيتي والكوبـي. وبما أنها القـوة الوحيدة القادرة على التأثير في حسابات الأطراف، فقد كانت الولايات المتحدة بحاجة لأن تتحمل مسؤولية تطوير استراتيجية خاصة بأفريقيا الجنوبية.

إن «تحمـل المسؤوليـة» كشعار، هو فارغ بقدر ما هـو مؤثر، ما لم يؤد إلى أعمـال تبدل الظروف التي نجمت الأزمة عنها أولاً. ولا بد من الوصول إلى طريق مسدود لإشعال فتيل العمل، سواء فرض من الخارج أم كان نتيجة قرار إلزامي تقريباً.

قرر فورد أن أفضل طريقة لخلق مثل ذلك الطريق المسدود، هي برمجة رحلة أقوم بها إلى أفريقية كي أبين اهتمامنا بها وأقدم موقفاً أمريكياً متماسكاً في خطاب هام ألقيه أمام حضور من الأفارقة. فإذا أردنا أن نحقق تقدماً نحو حل سياسي قبل أن يفلت زمام الأمور من أيدينا وقبل أن يغرق فورد في حملته الانتخابية، فإن علينا أن نبدأ بأسرع ما يمكن. حين اتخاذ القرار في أوائل شباط بأن علي أن أذهب إلى أفريقية، كان موسم الانتخابات الأولية على وشك أن يبدأ. ومن المدهش نتيجة معايير السياسة في هذه الكتابة، أن الانتخابات الأولية لم تناقش قط حين خطط للرحلة في نهاية نيسان. جزء من السبب ربما، هو أنه لم يكن هناك طريقة عملية لحسبانها. ومن نهاية شباط إلى نهاية حزيران، كان سيجري انتخاب أولي في هذه الولاية أو تلك كل أسبوعين أو ثلاثة. يعقبها تحديد المؤتمرات والانتخابات.

وكما كان قد أوضح خلال أزمة قبرص والجدل حول تعديلات جاكسون و«إعادة تقويم» سياسة الشرق الأوسط، لم يكن فورد ليعلق آمالاً كبيرة على أن السياسة الخارجية ستكون عوناً له في تطلعاته الانتخابية. وعندما عدت من رحلتي الأفريقية الأولى لأواجه حلبة انتقادية واسعة النطاق، قال فورد في اجتماع المكتب الأمن القومي بتاريخ 11 أيار:

هنري ذهب لتوه إلى أفريقية، وقد نفذ سياسة مسؤولة وجيدة. فيما أطلقت علينا سياسياً نيران مدفعية كثيرة نتيجة هذه الرحلة، لكنها كانت كلها بغير وجه حق وبلا قيمة. فإذا كنا سنحافظ على وضعنا في العالم، فليس بمستطاعنا أن نجمد سياستنا الخارجية في السنة الانتخابية، بل علينا أن نستمر بفعل ما هو صحيح، وذلك بغض النظر عن الانتخابات الأولية. وقد يكون هذا قاسياً أحياناً لكنه صحيح.

لقد تم اختيار لوساكا لكي أقدم فيها برنامجنا من أجل حكم الأغلبية، لأن زامبيا، من بين دول المواجهة كلها، هي الأشد تأثراً مباشرة بالقضية الروديسية. إذ كانت دول المواجهة قد أصدرت سنة 1969 ما يدعى ببيان لوساكا الذي أعلن، بلغة بليغة، عن حق وواجب «كل الناس في المشاركة، كونهم أفراداً متساوين في المجتمع في حكم بلدانهم وحكوماتها». أما المناداة بحكم الأغلبية فيمكن أن تقرأ أيضاً على أنها توكيد للأقلية الأوروبية بأن يكون لها وجود محترم بعد تنازلها عن السلطة. كما اخترنا النصف الأخير من نيسان موعداً مستهدفاً لكي يتيح لي ذلك إمكانية إلقاء خطاب أيضاً، وفي الرحلة ذاتها، في مؤتمر التنمية الذي كانت ستعقده الأمم المتحدة في نيروبي أُجمل فيه البرنامج المتعلق ببقية أفريقية. لكن حدث أن الرحلة تخللتها انتخابات تكساس الأولية، وأن خطابي هو الذي تحمل اللائمة لهزيمة فورد الكارثية فيها. غير أن فورد كان قد اختار أن يعطي الأولوية لما كان لا بد منه حسب مفهومه، للدفاع عن مصالحنا القومية وإن كان ذلك على حساب تطلعاته السياسية.

عناصر استراتيجية:

قبل إلقاء أنفسنا في أفريقية، كان لا بد من التوصل إلى استراتيجية، انطلاقاً من الأهداف المتراكبة جزئياً، وغير المتجانسة جزئياً لمختلف الأطراف. مصدر قوتنا الرئيسي هو أن الدول الأفريقية ذاتها كانت تحثنا على التدخل، فيما كانت حكومات الأقليات البيضاء تثق بنا أكثر مما تثق بأي بلد آخر أو، بالنسبة إلى تلك المسألة، أية مجموعة قيادية بديلة في الولايات المتحدة. أما بالنسبة إلى الأطراف الأخرى أو الأطراف المحتملة:

- ❖ إن دول المواجهة، أي موزامبي، وزامبيا، وتنزانيا وبوتسوانا، التي كانت حرب العصابات تُنظَّم على أرضها، فقد كانت هي القنوات التي تمر عبرها الأسلحة من الخارج إلى القارة وكذلك المستشارون الأجانب والقوات الكوبية. بيد أن قادتها كانوا يعرفون أيضاً أن القوات الروديسية مسلحة تسليحاً حسناً وشديدة تماماً، وأن الحرب ستكون مكلفة وربما تنتهي بعدم بقاء قوات العصابات ضيفة أو دخيلة بل ربما تسيطر على البلد المضيف.
- ❖ أما الدول الأفريقية الأخرى، ذات العلاقة الأقل مباشرة، فقد كانت تدعم حكم الأغلبية مبدئياً لكنها كانت مستعدة للتعاون من أجل الحيلولة دون أن تصبح القارة ساحة معركة للحرب الباردة.
- ❖ جنوب أفريقية تخشى من أن يتحول الكفاح المسلح في روديسيا إلى مقدمة لهجوم ضد جنوب أفريقية ذاتها. في الوقت ذاته، كانت دول المواجهة كلها تدرك أن مساعدة جنوب أفريقية ضرورية ولا بد منها لحل المشكلة الروديسية، ذلك أن انتقال السلطة، بغير مساعدتها، سيكون دموياً، والنتيجة غير مضمونة، فيما إضفاء صبغة التطرف على المنطقة كلها سيكون لامناص منه.
- ❖ بالنسبة إلى بريطانيا، كانت روديسيا تمثل ذكرى أليمة لتضاؤل موقعها الدولي، إذ إن عجز بريطانيا عن إجبار روديسيا على الخضوع، أضعف محاولتها في تطوير دور أفريقية جديد قائم على التعاون مع مستعمراتها السابقة، وهو يفسر أيضاً الكراهية الشخصية التي كان يكنها الكثيرون من القادة البريطانيين لإيان سميث، وهي الكراهية التي عقدت، وغالباً ما أحبطت التعاملات البريطانية معه.
- ❖ أما بالنسبة إلى السلطات الروديسية، فقد كانت أقل الأطراف كسباً من العمليات الدائرة حولها جميعاً، فأياً كانت الضمانات المقدمة لحقوق الأقلية المرتبطة بحكم الأغلبية، فإن وضع السكان الأوروبيين سيكون في حالة من الضمور لا محالة. وفي 9 نيسان، حين سألت السير أنطون دوف، المسؤول في وزارة الخارجية البريطانية تحديداً عن شؤون أفريقية والشرق الأوسط؛ أجاب: يمكنهم أن يتابعوا شغلهم، لكن ربما لن يكون لأطفالهم مستقبل». لقد كان بالإمكان حث سلطات إيان سميث لإقرار حل فقط من خلال إفهامها بالعربي الفصيح أن السياسة التي نصممها هي الأقل سوءاً من بين الخيارات المؤلمة المطروحة أمامها جميعاً.

هـذا الخليط من الأشيـاء غير المتكافئة ـ أي وجـود أصحاب سلطة لا يتمتعـون بالشرعية وأصحاب شرعيـة ليـس بيدهم سلطة؛ عواطف أطراف يقابلهـا عدم ثقة هذه الأطراف ببعضهـا بعضاً ـ أقول هذا الخليط هو الذي وضع الحدود لاستراتيجيتنا الأفريقية وتطلعاتها.

كان قرارنـا الأول والأشـد رسوخـاً هو أن تلتـزم الولايات المتحـدة دون غموض، وفي الحـال، بمبدأ حكـم الأغلبيـة، ولقد هوجم ذلك القرار أشنع هجوم وصار قضية من قضايا الحملة الانتخابية الرئاسية، لكنـه كان أبسـط الخيارات أمامنا، إذ لم يكن باستطاعتنا اتخـاذ موقف في أفريقية فقط بإعطاء دروس حـول القضايـا الجيوسياسية أو بوضع أنفسنا إلـى جانب حكومات الأقليـات. وإذا أردنا أن نقف في وجه المغامرات السوفيتية والكوبية المستقبلية في أفريقية الجنوبية وأن نخفض النفوذ السوفيتي ونلغيه هناك ـــ كما فعلنـا في الشرق الأوسط ـ فإن على سياستنا أن تعكس آمال ومطامح الأغلبية الساحقة في القارة. الأمـر الذي لـم يفهمه المدافعون عن الأقليات البيضاء في سياستنا الداخلية هو، أن الخط الذي اتخذناه كان الوسيلـة الوحيـدة لإبقاء فرصة مـا أمام المستوطنين كي يعيشوا حياة كريمـة ـ رغم أنها ستكون في ظروف أقل جودة مما كانت عليه.

لقـد فشلت الجهود السابقـة لأنها لم تستطع إيجاد توازن بين الفوائـد والمضار للتوفيق بين الحوافز المتصارعـة ضمـن مِرجَل أفريقيـة الجنوبية. وقد اقترحنـا أن نطور استراتيجيـة متماسكة للخروج من المأزق مرة وإلى الأبد:

ـــ لقد عرضنا على دول المواجهة انتقالاً سريعـاً لحكم الأغلبية وذلك بإلقاء الولايات المتحدة بكامل ثقلها خلف أهدافها. بذلك سيتم توفير الدمار الذي سيلازم أي صراع طويل والتعريض للخطر استقرارها الداخلي من خلال السماح لوحدات حرب عصابات بالإقامة على أرضها. بالمقابل، أكدنا بكل إصرار على إبقاء القوات الأجنبية خارج الصراع، كما نتحمل مسؤولية التفاوض على وضع حركات التحرير الروديسية ونضمن حقوق الأقليات.

ـــ وقـد عملنا بصورة وثيقة مع القـادة الأفارقة المعتدلين، لا سيما في كينيـا، وزائير، والسنغال وساحل العاج، كي نساعد في تكوين إجماع في الرأي داخل منظمة الوحدة الأفريقية دعماً لسياساتنا وحماية لرؤساء دول المواجهة من الضغوط الأفريقية والدولية المتطرفة (فنيجيريا عموماً كانت تدعم الخط المتطرف).

ـــ ولقد اعتمدنا على بريطانيا لكي تدخل من جديد في دبلوماسية أفريقية الجنوبية وتلعب دوراً مهماً فـي المؤتمر التأسيسي الذي سيكون ذروة الاختراق الـذي نأمل أن نحققه، وفي غضون ذلك، سنعتمد كل الاعتماد على الخبرة والمشورة البريطانية.

ـ بالنسبة إلى زعماء جنوب أفريقية، نقلنا لهم أنهم سيعطون دوراً شاملاً في المساعدة لتشكيل أفريقية السلام، والاستقرار، والعدالة بين الأعراق، وسوف تعامل جنوبي أفريقية كوسيط قيِّم وتمنح فسحة للتنفس

في التعامل مع مشكلاتها الخاصة، شريطة أن تساعد في دفع أفريقية الجنوبية نحو إدارة سياسية جديدة. لكننا أوضحنا بكل جلاء أن دعمنا لحكم الأغلبية لم يكن ليقف عند حدود جنوب أفريقية.

ـ الرجل الغريب الشاذ إنما كان إيان سميث، فقد فشلت كل الجهود السابقة لأنها كانت تبدأ بمفاوضات مع هذا الممثل للأقلية البيضاء التي لم يكن لديها أيُّ حافظ للتخلي عن هيمنتها. لذلك اقترحنا أن نتعامل مع سميث بعد أن يتم الاتفاق على التزامات الأطراف الأخرى. ولم يكن باستطاعتنا أن نفعل شيئاً حيال حقيقة أخرى هي، أن سميث وأقليته الأوروبية لن يكسبا إلا القليل من دبلوماسيتنا. لكننا اقترحنا أن نيّسر الانتقال من خلال معاملته باحترام. لم يكن لي أية علاقة به إن خيراً أو شراً، لكنني كنت أعتبره مشكلة لا بد من التعامل معها كمشكلة، أكثر من أنه خصم ينبغي قهره. بل حتى وأنا أسعى لتغيير طريقة الحياة التي تعيشها الأقلية الروديسية، كنت باعتباري لاجئاً سابقاً، أتعاطف وأشعر بالعناء الذي ستكابده تلك الأقلية نتيجة انهيار أسلوبها في الحياة.

السياسة الأفريقية وإجماع الرأي المحلي:

في اجتماعاتنا اليومية، كان فورد يولي اهتماماً شديداً للتطور الحاصل في السياسة الأفريقية ويحثنا على إعطائها الصيغة الأشد اكتساحاً، بما في ذلك تطوير خيارات عسكرية لدعم أهدافنا السياسية. إذ كان واضحاً أن مقاومة الاندفاعة السوفيتية ــ الكوبية الهادفة لجعل كوبا الطليعة العسكرية للشيوعية بحاجة لأكثر من بيان سياسي.

في 24 آذار 1976، اجتمعت بمجموعة إدارة الأزمات الخاصة بنا في «قاعة الموقف» الواقعة في قبو البيت الأبيض. وبسبب أهمية الموضوع وحساسيته، فقد كان بالحقيقة اجتماع مكتب أمن قومي لكن دون الرئيس. ولأنني كنت من قبل قد نسقت معه السياسة الأفريقية استعداداً لرحلتي، فقد طلب إلي فورد أن أترأس الاجتماع على الرغم من أنه، ومنذ ما دعي بمجزرة عيد جميع القديسين التي ذكرناها سابقاً، أصبحت المسؤولية عن آلية عمل مكتب الأمن القومي على كاهل سكوكرفت. وقد أجملت المهمة كما يلي:

إننا نريد أن نبدأ خطتنا في الميادين السياسية، والاقتصادية والعسكرية، بحيث يمكننا أن نرى ما يمكننا فعله إذا ما ابتغينا التحرك ضد كوبا، وينبغي أن يكون لدينا نطاق من الخيارات. في وقت لاحق، سيعقد اجتماع لمكتب الأمن القومي من أجل مناقشة الأهداف، الآن علينا أن نتفحص إمكاناتنا بحيث يكون باستطاعة الرئيس أن يتخذ القرار السياسي بما عليه أن يفعل، وكيف يخطط لذلك..

وقد قمت بتحديد الهدف الاستراتيجي كما يلي:

علينا أن ندخل في رؤوس قادة البلدان الأفريقية أنهم لا يستطيعون أن يضعوا رجلاً هنا ورجلاً هناك.

ليس باستطاعتهم أن يدعموا الكوبيين في أفريقية ويدعمونا نحن في الوقت نفسه.. علينا أن نعلم ما نريد أن نفعل. وعلينا أن نتفحص جيداً خطين أو ثلاثة خطوط محتملة للعمل وأن نحصها بكل تفصيلاتها لنرى ما يمكن أن ينجم عنها من مشكلات..

وقد أعد نائب رئيسي السي أي إي، فيرنون وولترز التقويم الناتج للاجتماع:

على الرغم من أن التمرد سيستمر في التصاعد إلا أن عصابات الحرب الشعبية ستبقى أضعف من أن تحقق انتصاراً عسكرياً طالما ظل دعمها محدوداً بكميات «معتدلة» من مواد المساعدة وعناصر «المستشارين» الكوبيين والسوفييت.

في هذا الوضع، ستكون هذه العصابات تحت ضغط متصاعد لقبول المساعدات الكوبية والسوفيتية على نطاق أوسع، إضافة لعناصر «قتالية كوبية» . ولسوف يكون من الصعوبة بمكان متزايد بالنسبة إلى القادة الأفارقة بالذات الذين يسعون الآن «للحد» من التدخل السوفيتي والكوبي أن يقاوموا مثل هذه الضغوط.

في اليوم ذاته قال فورد لمجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ: إنه مصمم على اتخاذ إجراء شديد ضد نتيجة كهذه.

غير أن إحساس الوكالة بضرورة الاستعجال لم يشاركها الجميع فيه. فقد عكس دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع الجديد، ما كان عليه البنتاغون من حذر تقليدي. وعلى العكس من الفكرة الشائعة بأن العسكري يحب أن يكسب أسلحة، إلا أنه ينفر من استخدامها إلا في وجه أشد التحديات مباشرة للأمن الأمريكي، فإن الأهداف السياسية المحدودة تجعل العسكريين عصبيين لا سيما منذ حرب فيتنام.

وحين ينفر البنتاغون من أمر، يتشبث بموقفه مصراً على النظر الكامل بكل الخيارات مهما تكن واسعة ومعقدة إلى حد أن الرئيس يجد نفسه مشوشاً غارقاً في ممارسة مدرسية تقريباً، مما يزيد من شدة حيرته. لقد عبر رامسفيلد عن موافقته على استراتيجيتنا، لكن ما أزعجه، كل منها يتعلق بسلسلة من الافتراضات السياسية. وقبل أن يكون بالإمكان التخطيط لعمل عسكري، يتعين النظر ملياً في كل تعديل عسكري وسياسي، على حدّة وبالعلاقة مع التعديلات الأخرى كلها.

مثل هذه المهمة يحتمل أن تستهلك بقية الفترة الرئاسية لفورد، إن لم يكن عقداً من الزمن، ولا يمكن إنجازها إلا بالكاد ضمن الإطار الزمني المتعلق بالأخطار التي نسعى لمواجهتها.

ظل فورد هادئاً، رغم أنه يكون عادة تجاه نزعات أعوانه أكثر عنفاً من أن يدعها على هواه. والبنتاغون، الذي صار رامسفيلد حاكمه في 29 آذار، لم يكن بحاجة لأن يتوصل إلى توصية قبل رحلتي إلى أفريقية في نيسان، وليس هناك سوى مجموعة أولية من الاستنتاجات يمكنها أن تساعد الرئيس في حال الطوارئ:

obeikandl.com

لا أعتقد أننا بحاجة لقول ما سوف نفعله، لكنني أعتقد أن علينا أن نستعد لاتخاذ إجراء إيجابي ثم أنا لا أريد للشيوعيين أن يأخذوا فكرة بأننا لن نقوم بعمل عنيف وقاس.

في غضون ذلك، أدت لنا تسريبات الصحف ولمرة واحدة، خدمة مفيدة من خلال لفت انتباه كاسترو إلى أننا كنا جادين. ففي 26 آذار، صدرت الواشنطن بوست بعنوان عريض يقول: «البيت الأبيض والبنتاغون يدرسان إمكانية عمل عسكري ضد كوبا»[7]. وعادة يمكن لقصة كهذه أن تغرق في ضجيج الخلفية العامة لواشنطن، لكن من المؤكد أنها كانت ستلفت انتباه هافانا.

في 22 نيسان وقبل أن أغادر إلى أفريقية، راجعت مجموعة الأمن الخاصة التخطيط المحتمل الذي كنا نناقشه طيلة الأسابيع الأربعة الماضية. ومرة ثانية، كانت المبادئ حاضرة. إذ كُرّس قدر كبير من الاجتماع لتلخيص مخابراتي شامل قدمه مدير السي آي إي الجديد، جورج بوش. جوهر تقدمته ـ المدعوم بتفاصيل داعمة كثيرة ـ تم تلخيصه بهذه الجملة البليغة: «تتكهن جماعة المخابرات بأن القوات الكوبية ستتدخل في روديسيا قبل نهاية 1976» .

ورغم أن فورد لم يفلح في استخلاص توصية محددة من البنتاغون، إلا أن رامسفيلد زود المجموعة الأمنية الخاصة بمجموعة كفوءة وشاملة من الخيارات بست مراحل متدرجة. في تلك الخطط أدرجت ضمن قائمة القوات المطلوبة والأخطار التي تتعلق بكل مرحلة. وفي حال التأزم، كانت تقدم مركّباً مفيداً من الخيارات المتاحة، رغم أن الرئيس سيواجه بالتأكيد خلافات مريرة قبل اتخاذه قراراً نهائياً.

فمع مغامرتنا بدخول إقليم لا خريطة له حتى ذلك الحين، كنا نبذل أقصى جهد لتكوين دعم محلي. وبين آذار وأيلول، 1976، التقيت أربع مرات بمجموعات من القادة الأمريكيين ـ الأفارقة، وعددهم ثلاثون تقريباً. لقد ساعدني وزير النقل، وليم كولمان، وهو محام أمريكي من أصل أفريقي متميز، في تحديد ماهية الإسهامات لكي نضمن أن كل جزء مهم من الخيار كان ممثلاً ويشارك في الاجتماعات أما د.ليون سوليفان الذي كان رائداً في العمل مع الشركات الأمريكية لوضع قواعد تهدف لاختراق نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقية، فقد قدم الكثير من النصح المفيد لمساعدتنا في جسر الهوة مع جماعة السكان الأمريكيين ـ الأفارقة.

الاجتماعات ذاتها كانت عاطفية تماماً لأنها كانت المرة الأولى التي يجتمع فيها زعماء الأمريكيين ـ الأفارقة بوزير الخارجية لاستشارتهم بصورة منهجية وأخذ رأيهم. وهكذا، حتى منتقد طويل العهد للإدارات الأمريكية التي خدمت فيها كالأب جيس جاكسون تعهد بتقديم دعمه:

إننا نقدر كل التقدير أنكم وافقتم على احترامنا. إذ ما من وزير خارجية آخر وافق على تقديم مثل هذا الاحترام للأمريكيين السود..

.. إننا ندعم السياسة الأفريقية التي باشرتموها، وعلى هذا الأساس، لكم كل دعمنا. فوزراء الخارجية الآخرون ما كانوا ليلتقوا بنا كما فعلت أنت.

وعلى الرغم من أنه كانت هناك وجهات نظر شتى فيما يتعلق بالتكتيك، إلا أن زعماء الأمريكيين ـ الأفارقة كانوا داعمين جداً لاستراتيجيتنا العامة.

غير أن الكونغرس برهن على أنه أقل تقبلاً. ففي 18 آذار، التقيت بستة أعضاء من لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ــ ومعظمهم من الجانب الليبرالي الذي كنا نقدر أن جلّ مصاعبنا ستأتي منه، إذا ما وقفنا في وجه أيٍّ تحرك عسكري كوبي آخر، فلم يصدر عنهم أي نقد يتعلق بنوايانا. كنا قد خططنا لأن تلقي الولايات المتحدة بثقلها كله خلف حكم الأغلبية في أفريقية الجنوبية وأن نعمل لتحقيق اختراقات في روديسيا وربما في ناميبيا في ذلك الصيف. لكن إذا ما تدخلت القوات الكوبية، قلت لهم، «فإننا قد لا نفعل شيئاً في روديسيا، لكن ربما يتعين علينا أن نفعل شيئاً ما هنا، بما في ذلك الضغط العسكري على كوبا».

ادعى السيناتور كلارك، وهو صاحب التعديلات التي منعت أي مواجهة أبعد للتحركات الكوبية في أنغولا، بأنه موافق على الاستراتيجية من حيث المبدأ. لكنه احتج بأن روديسيا ليست المكان الملائم لاتخاذ ذلك الموقف، لأنها ستجعلنا نتحالف مع حكومة الأقلية البيضاء هناك بزعامة إيان سميث.

وهكذا، كان تجنب هذا المأزق هو، بالطبع، السبب في تقديم الدعم الأمريكي لحكم الأغلبية. فأشرت إلى أننا إذا ما حيل بيننا وبين مقاومة التحركات العسكرية الكوبية والسوفيتية، «فإن ذلك سيؤدي إلى وجود دائم للكوبيين في أفريقية الجنوبية». لأنهم كانوا مضطرين للتدخل حيث يكون وضع المقاومة صعباً سياسياً.

بعدئذ أجمل همفري استنتاج أعضاء مجلس الشيوخ.

إن الشعب الأمريكي معني للغاية بكوبا، فاهتمامه ينصب أكثر على نصف الكرة الغربية هذا. وهناك موجة من الغضب في البلاد بسبب ما يفعله الكوبيون في أفريقية. وأعتقد أن أي شيء تفعله في هذا النصف من الكرة سيلقى التأييد، ومن الكونغرس. كما نعتقد أن التدخل في أفريقية قضية خاسرة.

الأسابيع التالية قضيتها وأنا ألخص سياستنا للجان الكونغرس وأتلقى الرد نفسه تقريباً: الرغبة بسياسة أكثر فعالية واهتمام بالتدخل الكوبي، النفور من مقاومته بالقوة. وهكذا وضعت أفريقية الجنوبية في حالة من الإنعاش الحاد انقساماتنا الوطنية مرة ثانية حين كانت تبذل محاولة للربط بين القوة والسياسة. لقد كان الليبراليون يسعون وراء حالة من «النيرفانا» (الاسترخاء السعيد) تجمع بين المبدأ والحد الأدنى من الخطر. ولسوء الحظ، كما قلت للسيناتور همفري، منذ أن استلم السوفييت والكوبيون زمام المبادرة، إنه من غير المحتمل أن يهجموا في الأمكنة الملائمة لنا. في الآن نفسه، كان المحافظون،

كما لاحظت في الخطاب الذي القيته في دلاس في 22 آذار، يدعون «لتفوق استراتيجي مع ممارسة تراجع إقليمـي» . فيما كان المحافظون الجدد أكثـر اهتماماً بتشديد هجومهم الأيديولجي على فورد وأعوانه من اهتمامهم بالمشاركة في الصراع ضد الشيوعية حيث يحدث نزاع فعلاً.

لقـد كان الوقـت ذا أهمية. فالصراع المسلح كان قد بدأ في روديسيا عبـر موزامبيق وزامبيا. والسي آي إي تتنبأ بتدخل كوبي وشيك. أي أن حرباً عنصرية خارج السيطرة بدت وكأنها على حافة الانفجار في أفريقيـة الجنوبية، فيما يتمتع الدور الكوبي ــ السوفيتي في صراعات التحرر في أفريقية باحتمال زيادته لعـدم الاستقـرار في أرجاء القارة كلها (وقد حدث هذا بالحقيقة بعد أن غادر فورد مكتب الرئاسة). كما أنهـا، ما إن ترجع القوات الكوبية إلـى وطنها، حتى يمكن أن تتحول إلى عنصر بلبلة وزعزعة استقرار في السياسات العرقية لأمريكا اللاتينية كلها، كما أشار إلى ذلك رئيس فنزويلا وكولومبيا.

لكن كان على رحلة أفريقية أن تبت في ما إذا كان باستطاعتنا أن نرتقي بتطور يتسق مع قيمنا وأمننا على حد سواء أم لا. إثر ذلك، اتُّهم الرئيس بالبلادة السياسية لأنه فعل ذلك وربما لأنه لم يفهم تماماً ما كان يجري. كما واجه أيضاً العذر المألوف لتخلي الكونغرس الذي لم يكن قد استشاره بالشكل الملائم.

لـم يفاجأ أحد بسياستنـا الأفريقية. إذ كنا قد تكلمنـا عن حكم الأغلبية بالنسبـة لأفريقيا الجنوبية داخـل حكومتنـا الكونغرس وإلى القادة الأجانب طيلة أشهر. كما كنا قـد أوضحنا نيتنا في ضمان حقوق الأقلية البيضاء في أي ترتيب دستوري جديد ينشأ عن مبادرتنا الأفريقية.

علـى أن الرئيـس لم يناقش معي في يوم من الأيـام حملة الانتخابات الأولية، رغـم أنني كنت الوحيد الـذي طرح مسألـة الثمن السياسي لما كنا نهم باتخاذه في اجتماع المكتب البيضوي في 12 نيسان. فكان رد فورد هو من حثني على العمل بهذا المبدأ لا أن أكون تكتيكياً جداً:

كيسنجر: أنا ذاهب إلى أفريقية وأخطط لأن أتخذ موقفاً قوياً لصالح السود بالنسبة إلى جنوب أفريقية.

فورد: هذا تمام بالنسبة إلي.

كيسنجـر: ستصـب جنوب أفريقيـة عليك بعض نيـران مدفعيتها بسبـب ذلك. وأنـا سأدعم إلغاء تعديلات بيرد (التي تستثني الكروم الروديسي من الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة).

فورد: ذلك هو موقفنا. لكن يجب أن يكون بما يستحق، لا كتعديل لقانون آخر.

لكن ما كان وراء الصدمة من أسباب، هو أن فورد، حتى في سنة الانتخابات، لم يغير رأيه في الخدمة. ففـورد، الـذي دفعت الرئاسة إليه بفعل القدر، كرّس نفسه لأن يكون جديراً بمسؤوليات الرئاسة، وقد كان أكثر تواضعاً من أن يعتقد أن له الحق في أن يجعل المصلحة العامة ثانوية ملحقة بتطلعاته لإعادة انتخابه. إن السياسة الحديثة تزدري مثل هذه المواقف، لكن التاريخ ملزم بأن يكون أكثر تلطفاً ورفقاً بكثير.